



بسم الله الرحمن الرحيم

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ} (٣١) سورة الزخرف

أجمعت<sup>١</sup> التفاسير أن القريتين هما مكة والطائف. ولكن ربما قصد القرآن بالقريتين المدائن والقسطنطينية. إذ قيل أن المدائن عاصمة فارس في القرن السادس الميلادي كانت أكبر<sup>٢</sup> مدينة في العالم. وأن القسطنطينية عاصمة الروم خلال القرنين السادس والسابع للميلاد كانت أعظم<sup>٣</sup> مدينة في الشرق.

ولم يكن في نظر عرب<sup>٤</sup> الجاهلية أعظم وأعز وأقوى وأكبر من عاصمتي الفرس والروم. وكانت الدولتان العربيتان الغساسنة والمناذرة<sup>٥</sup> تخدمان فارس والروم. وخضعت كثير من قبائل العرب لهاتين التابعتين ومدحت ملوكهما. وشغلت كندة مؤقتاً دور المناذرة. وامتد نفوذ فارس والروم<sup>٦</sup> بجزيرة العرب.

وذكرت روايات<sup>٧</sup> أن كفار قريش قرنوا ساخرين بين أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام وبين كسرى وقيصر، مما يؤيد أن أحدهما كان المقصود بعظيم القريتين.

### اقتران فارس والروم يشبه اقتران القريتين

فارس والروم في التراث العربي يظهران كتوأم قلما يُذكر أحدهما دون الآخر. فعادة ما نقرأ عبارة (كسرى وقيصر)<sup>٨</sup> أو عبارة (فارس والروم)<sup>٩</sup>، دون انفصال كأنهما وجهها عملة واحدة. فلا يكاد يذكر كسرى إلا ومعه قيصر، ولا فارس إلا ومعها الروم، هذا غير مجيئهما بنفس العبارة أو الخبر. وقرن القرآن بين فارس والروم التي ذكرها في سورة باسمها. وتفسير أن القوم أولي البأس الشديد هما فارس والروم<sup>١٠</sup>. وعبرت الأحاديث عن (الكنزين)<sup>١١</sup> أنهما خزائن فارس والروم. فهذا الاقتران الطبيعي بين فارس والروم يتناسب كثيراً مع كلمة (القريتين) بالآية.

### قريش ومبدأ الناس على دين ملوكهم

كفار قريش حسب تصورهم الغافل عن حقيقة [أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٦٥) البقرة]، لا يفهمون أن يتبع الناس إلا أديان الجبابرة [وَاتَّبِعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) هود]. لذلك رأوا أن يختار الله عظيماً كقيصر أو كسرى تخضع لسلطانه قريته العظمى<sup>١٢</sup> التي بدورها سائر القرى على اعتناق ملة الملك.

## ضعف احتمال أن القريتين مكة أو الطائف

اشتهر عرب الجاهلية بالحمية والأنفة ومعادة بعضهم [إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءَ (١٠٣) آل عمران]. وقريش تعرف حجمها وتدرك أن العرب لن يتبعوا عظيماً من مكة أو الطائف<sup>١٣</sup>. وحركات الردة بأرجاء الجزيرة والمنتبئين كمسيلمة والعنسي وطلحة وسجاح وغيرهم وسخط قبائل ربيعة<sup>١٤</sup> وربما الخوارج، عبرت عن مدى الاستكبار وكراهية الانقياد.

وأهل مكة يعلمون أن هذا القرآن للعالمين<sup>١٥</sup>، فظنوا عبر نظرتهم الدنيوية أن لا طاقة لهم بعبء الرسالة، وأنه لا تنهض بها إلا دولة عظمى كفارس أو الروم. ولمبلغ ضعف<sup>١٦</sup> قريش اعترفوا بخوفهم أن تتخطفهم العرب<sup>١٧</sup> والناس [وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطْفُ مِنْ أَرْضِنَا (٥٧) القصص]. وعجزت قريش وعظماؤها عن مواجهة جيش أبرهه<sup>١٨</sup> وعجزت الطائف وخضع<sup>١٩</sup> عظيمها. وكيف تهاب العرب عظيم الطائف إن كان قومه أنفسهم لم يهابوه فقتلوه<sup>٢٠</sup> (أو ابنه)<sup>٢١</sup> بعد إسلامه.

وتفسير (مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ) أنه (من مكة والطائف)، فيه ضعف، لأن كفار قريش علموا سلفاً أن الله قد اختار (من مكة). كما يظهر اضطراب<sup>٢٢</sup> الروايات في تحديد عظيم مكة والطائف.

## لماذا اعتقدت التفاسير أن القريتين هما مكة والطائف؟

ربما أعتبر لفظ القريتين من معنى التجاور والقرب المكاني. وربما أستبعدت قرى العجم لأجل عبارة [هَذَا الْقُرْآنُ (٣١) الزخرف]. ولكن لا يُسْتَبَعَدُ ذلك على البشر الأحياء من العجم، لأن نفس العبارة استعملت على الجبل الجماد الميت [لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ (٢١) الحشر]. وربما أعتبرت القرية لا تدل على مدينة كبرى كالمدائن والقسطنطينية، رغم أن القرية هي المدينة كما بالقرآن<sup>٢٣</sup>.

والأقرب أن تفسير القريتين بمكة والطائف تأثر بزمن جبار<sup>٢٤</sup> قريش الخليفة عبد الملك (ابن عظيم القريتين؟)<sup>٢٥</sup>، وزمن جبار<sup>٢٦</sup> ثقيف الحجاج (ابن عظيم القريتين)<sup>٢٧</sup>. ففي تلك الفترة أصبح أقوى رجلين في العالم قرشي وثقفي<sup>٢٨</sup>. كما ارتبط اللقب بالمختار<sup>٢٩</sup> الثقفي. وربط الفرزدق بيت مروان بعظيم القريتين<sup>٣٠</sup>. وقال الخليفة الوليد بن يزيد (أنا ابنُ عظيم القريتين).

## حامد العولقي

<sup>١</sup> تفسير الثعلبي: ولم يختلفوا في القريتين إنهما مكة والطائف.

<sup>٢</sup> In the ٦th century, Ctesiphon was the largest city in the world (source: en.wikipedia.org/wiki/Ctesiphon).

<sup>٣</sup> مجلة التاريخ العربي: فكانت القسطنطينية خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين أعظم مدينة في الشرق بلغت حضارتها الأوج وسكانها المليون نسمة وغزت تجارتها حواضر العالم.

<sup>٤</sup> تفسير البغوي: ... وما كانت العرب تقدر على قتال فارس والروم، بل كانوا خولاً لهم / تفسير البيضاوي: وقيل للعرب كافة فإنهم كانوا أذلاء في أيدي فارس والروم / تفسير الطبري: ... كان هذا الحي من العرب أذلّ الناس ذلاً ... مَكْفُومِينَ على رأس حجر بين الأسدين فارس والروم ...

<sup>٥</sup> تاريخ الطبري: رجل من لخم كان ملكه كسرى على ما بين عمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز ومن فيها من العرب يقال له المنذر بن النعمان

<sup>٦</sup> معجم البلدان - ياقوت: البحرين ... وهو اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان ... وأما فتحها فإنها كانت في مملكة الفرس وكان بها خلق كثير من عبد القيس وبكر بن وائل وتميم / الأزمنة والأمكنة - المرزوقي: وكانت عبد القيس وتميم جيرانها ... وكانت ملوك فارس تستعملهم عليها كما يستعملون بني نصر على الحيرة وبني المستكبر على عمان / البغال - الجاحظ: وكانت البرد منظومة إلى كسرى، من أقصى بلاد اليمن ... وكذلك كانت برده إلى البحرين ... وكذلك كانت برده إلى عمان، ... فكانت بادية العرب وحاضرتها مغمورتين بيرده

<sup>٧</sup> الرحيق المختوم - صفى الرحمن المباركفوري: حتى كان الأسود بن المطلب وجلساؤه إذا رأوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تغامزوا بهم، وقالوا: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر، ثم يصفرون ويصفقون / أنساب الأشراف: ويقولون: قد جاءكم ملوك الأرض ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر.

<sup>٨</sup> ديوان عترة: الملوك الكسرويه، سلّوا عنا ديار الشام طراً وفرسان الملوك القيصريه / لسان العرب: وفي حديث عمر كسرى وقيصراً يعيثان / ديوان ليلى: وتظلمنا عمال كسرى وقيصراً / بيتمة الدهر - الثعالبي: ومدامة صفراء أدرك عمرها كسرى وقيصر / نهاية الأرب - النويري: وقال عمر ... وإياكم وزى العجم كسرى وقيصر / خريدة القصر - العماد الأصهباني: فأين ملوك الأرض كسرى وقيصر / العقد الفريد - ابن عبد ربه: ومنازل كسرى وقيصر / تاريخ الطبري: ما كان للملوك نحو كسرى وقيصر / بحر العلوم - السمرقندي: قالوا إن ملك فارس والروم بيتان في الحرير والدياج / بحر العلوم - السمرقندي: وقال قتادة: كانوا بين أسدين، بين قيصر وكسرى / تاريخ دمشق - ابن عساكر: جهاد قيصر وكسرى / المزهر - السيوطي: وضاهيمو كتاب كسرى وقيصر .

<sup>٩</sup> الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ووعد أمته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود: هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم

<sup>١٠</sup> تفسير الطبري: ... في قوله (سَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ) قال: فارس والروم.

<sup>١١</sup> مصنف عبد الرزاق: إن الله أعطاني الكنز كسرى فارس والروم / سيرة ابن هشام: كَانَ مُحَمَّدٌ يَعْنِدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ / السيرة النبوية لابن إسحاق: لا تقوم الساعة حتى تفتح خزائن قيصر وكسرى

<sup>١٢</sup> مقدمة ابن خلدون: فارس والروم أهل الدولتين العظيمتين في العالم لعهدهم.

<sup>١٣</sup> تفسير الألوسي: فعن مقاتل لما فتح الله تعالى مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها قالوا: نرجوا أن يظهرنا الله تعالى على فارس والروم فقال عبد الله بن أبي: أنظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها، والله أنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك

<sup>١٤</sup> تاريخ الرسل والملوك - الطبري: فقال: أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق؛ ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر / تاريخ الطبري: وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيه من مضر ولم يخرج اثان إلا خرج أحدهما شارياً / نثر الدر - الأبي: وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبياً من مضر، وما خرج اثان قط إلا كانا ربيعين أو أحدهما

<sup>١٥</sup> إن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠) الأنعام / وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) الأنبياء / قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (١٥٨) الأعراف

<sup>١٦</sup> تفسير الألوسي: وأهل مكة ضعفاء ملجؤون إلى واد غير ذي زرع يخافون أن يتخطفهم الناس.

<sup>17</sup> تفسير السمعاني : الحارث بن نوفل بن عبد مناف، قال للنبى : ... إن أسلمنا معك لم نطق العرب؛ فإننا أكلة رأس ، ويقصدنا العرب من كل ناحية ، فلا نطيعهم . / الدر المنثور - السيوطي : ... قالوا : يا محمد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا ، والعرب أكثر منا، فمتى بلغهم أنا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس .

<sup>18</sup> تفسير الطبري : وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان معهم بالحرم من سائر الناس بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك ... فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، قال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة ... انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في شعف الجبال والشعاب، تحوفاً عليهم من مخرجة الجيش .

<sup>19</sup> السيرة النبوية لابن هشام: حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب ... في رحال ثقيف. ثقيف تهادن أبرهة. قال ابن اسحاق فقالوا له أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون.

<sup>20</sup> الإتيان في علوم القرآن - السيوطي : رجل من القرينين ... وقيل عروة بن مسعود من الطائف  
<sup>21</sup> أنساب الأشراف - البلاذري: وعروة بن مسعود بن معتب الثقفي، ... ومسعود بن معتب هذا "عظيم القرينين" . وعروة هو الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ليدعو تقيفاً إلى الإسلام، وقد استأذنه في ذلك، فرماه رجل وهو جالس فوق سطح، فقتله.

<sup>22</sup> انظر موضوع (اختلاف الروايات في تحديد عظيم مكة والطائف).

<sup>23</sup> تفسير ابن كثير : في هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً { حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ { [الكهف: 77] وقال هاهنا: { فَكَانَ لِبُلَّامِينَ تَيْمِينٍ فِي الْمَدِينَةِ } .

<sup>24</sup> الوافي بالوفيات - الصفدي: وقيل: إن المنصور قال يوماً لجلسائه: أخبروني عن ملك جبار ... فقال له أحد من حضر: عبد الملك بن مروان. / شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: فقال المنصور : كان عبد الملك جبارا / مختصر تاريخ دمشق - ابن منظور: وعبد الملك جبار هذه الأمة.

<sup>25</sup> وعبد الملك جد الوليد [أنساب الأشراف - البلاذري: فقال الوليد: أنا ابن عظيم القرينين وعزها ... ثقيف وفهر والرجال الأكابر/ الأغاني - الأصفهاني : فقال الوليد : ... أنا ابن عظيم القرينين]

<sup>26</sup> أنساب الأشراف - البلاذري: وقال الحسن: الحجاج ... ويحكم حكم جبار. / تفسير ابن أبي حاتم : قال: "لَعَنَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْجَبَابِرَةِ الْحَجَّاجَ أَوْ عَزِيْزَهُ." / سير أعلام النبلاء - الذهبي: الحجاج ... وكان ظلوماً، جباراً.

<sup>27</sup> السيرة الحلبية : عن الشعبي أنه سأل الحجاج ... وأنت والي العراقين وابن عظيم القرينين/ أخبار مكة للفاكهي : خطب الحجاج ... فقام رجل فقال : ... أمير العراقين ، وابن عظيم القرينين / وفيات الأعيان - ابن خلكان: ولما دخل الحجاج ... أنت أمير العراقين وابن عظيم القرينين/ الأغاني - الأصفهاني : فلما بلغ ذلك الحجاج ... قال ... وأنت أمير العراقين وابن عظيم القرينين.

<sup>28</sup> والي العراقين الحجاج بن يوسف [العقد الفريد - ابن عبد ربه : كتب الشعبي إلى الحجاج .... وأنت والي العراقين، وابن عظيم القرينين. / نثر الدر - الأبي : وأنت ابن عظيم القرينين. ... فنزل الحجاج ... / التذكرة الحمدونية : أمير المصريين وابن عظيم القرينين، ... فقال الحجاج ....].

<sup>29</sup> أنساب الأشراف : فقال: إن الذي تعبرونه ابن رجل من القرينين عظيم، وكانت أم المختار ... / تفسير مقاتل : ثم قال الوليد بن المغيرة : لو كان هذا القرآن حقاً ، لأنزل على ، أو على أبي مسعود الثقفي ، واسمه عمرو بن عمير بن عوف جد المختار . / بحر العلوم - السمرقندي: وسئل عن الرجلين فقال جبار من جبابرة قريش وهو الوليد بن المغيرة بمكة وعروة بن مسعود ، جد المختار / تفسير سفيان الثوري : ... العظيم احدهما المختار بن أبي عبيد والآخر من عظماء قريش/ المعارف - ابن قتيبة الدينوري: هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود بن عمر، والثقفي من الأحلاف، ويقال: إن مسعوداً جده هو عظيم القرينين/ شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: فأحد الرجلين العظيمين بلا شك الوليد بن المغيرة ، والآخر مختلف فيه ، فهو عروة بن مسعود ، أم جد المختار بن أبي عبيد .

<sup>30</sup> دواوين الشعر العربي << الفرزدق >> : إلى بَيْتِ مَرْوَانَ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لَهُ، ...، نَمَاكُ عَظِيمِ الْقَرْيَينِ